(١)

الإمام الشافعي ودوره التجديدي في عصره

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ القائل: (إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، وبعـــد :

فإن العلماء مصابيح الدجى، ومنارات الهدى، ودعاة الحق، وهم ورثة الأنبياء، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ).

وإن من فضل الله سبحانه على أمتنا أن جعل منها علماء مجددين، فقهوا مراد الله تعالى ومراد رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وبيَّنوه للناس بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)، ومن أعظم العلماء المجددين: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ثالث الأئمة الأربعة، وواسطة العقد بينهم، حيث تلقى العلم على يد الإمام مالك بن أنس (رحمه الله)، إلى جانب اتصاله بتلاميذ الإمام أبي حنيفة (رحمه الله) وقراءة كتبهم، وكان أستاذًا للإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله).

وقد بنى الشافعي (رحمه الله) مذهبه على فهم مقاصد كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، وفهم الواقع، وكان (رحمه الله) نافذ النظر، دقيق الاستنباط، قوي الحجة، فصيح اللسان، ناصع البيان، وقد بعث إليه الإمام أبو يوسف – صاحب أبي حنيفة (رحمه الله) – قائلا: صَنِّف الكتب؛ فإنك أولى مَن يصنِّف في هذا الزمان، وقال عنه الإمام أحمد (رحمه الله): ما أحدٌ مسَّ بيده محبرة ولا قلمًا– بعد الشافعي– إلا وللشافعي في رقبته منّة، وقال عنه أيضًا: كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن.

ولقد حبا اللهُ تعالى الشافعيَّ (رحمه الله) عقلًا واعيًا ، فلم يكن مقلدًا، ولم يقف عند حدود النص؛ بل نظر إلى مراميه ومقاصده، لذا اعتبره أهل العلم مجدد القرن الثاني الهجري ، وقد راعى (رحمه الله) في منهجه التجديدي الزمان، والمكان، وأحوال الناس، وعاداتهم، وطبائعهم.

ولذلك فقد مرَّ مذهبه (رحمه الله) بمراحل؛ حيث اختلفت بعض آرائه الفقهية في مصر فيما عرف بالمذهب الجديد عنها في العراق فيما عرف بالمذهب القديم؛ مراعاة لظروف البيئة وأحوال الناس .

****

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد كان الإمام الشافعي (رحمه الله) جامعة علمية؛ فقد جمع بين علوم التفسير، والحديث، والفقه، وأصوله، والنحو ، والشعر، والعروض، وعلى الرغم من سعة علمه وقوة حجته، فلم يكن متحجرًا ولا متعصبًا لرأيه؛ بل كان (رحمه الله) يقبل آراء غيره

من العلماء إذا وافق الحق، وكان من أشهر أقواله: إذا صح الحديث فهو مذهبي، ويقول: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، ويقول: إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي عرض الحائط.

فما أجمل التواضع في العلم، والأدب في الحوار، والفهم العظيم لمقاصد الشرع الحنيف، ومراعاة أحوال الناس وظروف عصرهم وبيئتهم، وهو ما جسَّده الإمام الشافعي في آرائه الفقهية ومسلكه الحياتي، وكان إلى جانب ذلك أديبًا وشاعرًا، ومن أشعاره:

ومنْ لم يذق مرّ التعلمِ ساعةً ** تجرّعَ ذلَّ الجهل طولَ حياته

فذَاتُ الْفَتَى واللَّهِ بالْعِلْمِ والتُّقَى** و إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتهِ

ويقول :

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ ** سَأُنْبيكَ عن تفصيلها ببيانِ

ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبُلغةٌ ** وصحبةُ أستاذٍ وطولُ زمانِ

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا